لابيتيّة الوطن: مقارَبة نفسيّة وثقافيّة للتجربة الفلسطينيّة وأدبِ ما بعد الاستعمار

د. لؤيّ وتد

نيسان 2025

مدى الكرمل
علم النفس التحرّري
Liberation Psychology

برنامج علم النفس التحرّري

لابيتيّة الوطن: مقارَبة نفسيّة وثقافيّة للتجربة الفلسطينيّة وأدبِ ما بعد الاستعمار

The "Unhomely" Homeland: A Psychological and Cultural Analysis of the Palestinian Experience and Postcolonial Literature

د. لؤيّ وتد
Dr. Loaay Wattad
عالم اجتماع وناقد في ثقافة الأطفال والشباب، متخصص في أدب الأطفال والسياسات الثقافية.
زميل بحث في منتدى EUME وباحث ما بعد الدكتوراة ضمن منحة منيرفا في جامعة برلين الحرة.

تحرير: إيناس عودة- حاجّ، بروفيسور أيمن اغبارية

تحرير لغوي: حنّا حاج

حقوق النشر محفوظة 2025

مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة

العنوان: شارع هميچنيم 90، حيفا

البريد الإلكترونيّ: mada@mada-research.org

رقم الهاتف: 04-8552035

مقدّمة

يتناول هذا المقال مفهوم اللّابيتيّة (Das Unheimlich)، كما قدّمه سيجموند فرويد[1] وطوّره فيما بعد هومي بابا،[2] في ما يتعلّق بالتجربة الفلسطينيّة في الوطن ومفهوم الهُويّة. إنّ نظريّة فرويد حول مفهوم اللّابيتيّة، التي تصف تحوُّل الشيء المألوف إلى شيء غريب ومريب، توفّر عدسةً قويّة يمكن من خلالها استكشاف العلاقة النفسيّة للفرد مع البيت. يوسّع بابا مفهوم فرويد ليشمل مشاعر الفرد بالنزوح في الحالة ما بعد الاستعماريّة، حيث يصبح البيت، الذي كان على نحوٍ تقليديّ موضعًا للراحة والانتماء، غيرَ مستقرّ من خلال قوى الاستعمار وإرث النزوح والتهجير حتّى لو بقي الفرد فيه. بالنسبة للفلسطينيّين أجمع، أولئك الذين عانَوْا وما زالوا يعانون من الاحتلال أو النفي أو التهجير أو الحرمان من الجنسيّة، أو تقاطعيّة جميع هذه الصور من العنف الاستعماريّ، مفهوم البيت والوطن مركَّب جدًّا؛ فهو موقع للحنين العميق والاغتراب اللّابيتيّ في آن واحد.

تتناول هذه الدراسة ثلاثة نصوص من الأدب ما بعد الاستعماريّ لتحليل كيفيّة تعبير هذه النصوص عن تجربة لابيتيّة الوطن. من خلال قراءات في النصوص الأدبيّة **مكان صغير**[3] لجامايكا كينكيد (1949-)، وَ**ماتيچاري**[4] لنچوچي وا ثيونچو (1938-)، وَ***عائد إلى حيفا***[5] لغسّان كنفاني (1936- 1972)، أدّعي أنّ هذه الروايات تعرض مفهوم اللّابيتيّة على نحوٍ مفصّل لتسليط الضوء على التنافر النفسيّ والسياسيّ الذي تعيشه المجتمعات المستعمَرة بشتّى صور ومراحل الاستعمار. أولئك أفراد المجتمعات الذين جرى استعمار منازلهم أو احتلالها أو تحويلها إلى ركام بصورة لا رجعة فيها. ومن خلال القيام بذلك، تقدّم هذه الأعمال الأدبيّة الوطن مَساحةً مشْبَعة بذكريات الأمان والراحة، بينما تطاردها أشباح الفقدان وصدمة النزوح. بِذا، لا يُستخدم مفهوم "اللّابيتيّة" هنا كمصطلح جاهز يُسقَط على النصوص، بل يُستخلص منها بوصفه أداة تحليليّة تكشف آليّات التحوُّل من البيت إلى اللّابيت، ومن المألوف إلى ما يثير القلق، في لحظات تصدُّع الحاضر وانكسار الذاكرة.

في حين أنّ التركيز الأساسيّ في هذه المقالة هو على السياق الفلسطينيّ، يمتدّ التحليل إلى نطاق أوسع من أدبِ ما بعد الاستعمار لإظهار كيف أنّ موضوعات اللّابيتيّة والمنفى والسعي إلى السلام النفسيّ تتجاوز الحدود القوميّة. ليست كلّ النصوص التي قيد النظر فلسطينيّةً، لكنْ معالجتها للوطن والغربة توفّر رؤية مهِمّة لتجربة الفقدان واللّابيتيّة الفلسطينيّة على شتّى جغرافيّاتها. يسلّط هذا النهج المقارن الضوءَ على الطرق التي يعمل بها النضال ما بعد الاستعماريّ من أجل الوطن والانتماء على المستويَيْن الفرديّ والجماعيّ، مع تغيُّر الحدود بين المألوف والغريب باستمرار. من خلال هذا التحليل، أؤكّد أنّ الأدب لا يخدم فقط كشكل جماليّ أو شاعريّ، بل كموقع للمقاومة يعكس الديناميكيّات المعقّدة بين الأرض والهُويّة والانتماء في المجتمعات الفلسطينيّة. من خلال التعامل مع ما هو لابيتيّ من خلال الأطر الفرويديّة وما بعد الاستعماريّة، يقدّم هذا المقال نهجًا جديدًا لفَهْم الكيفيّة التي بها يلخّص التعبير الفنّيّ الصدمات النفسيّة والوطنيّة التي يعاني منها أولئك الذين

1. Freud, Sigmund. (2017). **The Uncanny**. Routledge. (Original work published 1919). Pp. 318- 325.

2. Bhabha, Homi. (1992). The world and the home. **Social text**, 31/ 32. Pp. 141- 153.

3. Kincaid, Jamaica. (1988). **A small place**. Farrar, Straus and Giroux.

4. wa Thiong'o, Ngugi. (1989). **Matigari**. (Vol 823). Heinemann.

5. كنفاني، غسّان. (2018). **عائد إلى حيفا**. قبرص: منشورات الرمال. (تاريخ النشر الأصليّ عام 1969).

يعيشون بين الاحتلال والتحرير. في نهاية المطاف، يسعى هذا المقال إلى إظهار كيف يمكننا تعريف مفهوم اللّابيتيّة كأداة مفاهيميّة قويّة لفَهْم الصراعات النفسيّة التحرُّريّة في لبّ التجربة الفلسطينيّة.

في هذه المادّة، أقدّم وصفًا لتجربة لابيتيّة إضافيّة تركّز بصورة خاصّة على الفلسطينيّين المواطنين في إسرائيل؛ إذ لا ينبع التوتّر بين المألوف والغريب من غياب الوطن أو المنفى مادّيًّا، بل يستمرّ داخل حدود المكان البيتيّ، الوطن. يواجه المواطنون الفلسطينيّون في إسرائيل واقعًا معقَّدًا يعيشون فيه في نفس المساحة الجغرافيّة التي تجري فيها حياتهم الوطنيّة، لكنّهم يشعرون بالغربة والإقصاء في مواجهة السياسيّ والاجتماعيّ والوطنيّ. ولذا فأنا أرى مفهوم اللّابيتيّة في هذا السياق مناسبًا أكثر، كونه يعبّر بشكل مباشر عن التعريف: الشعور بالغربة ضمن ما يُفترَض أن يكون "الوطن". يشعر الفلسطينيّون المواطنون في إسرائيل بحالة من اللّابيتيّة نتيجة لتجارب متعدّدة تخلق لديهم شعورًا بالغربة والاغتراب في وطنهم. على سبيل الذكر لا الحصر، أولًا، رغم حصولهم على الجنسيّة الإسرائيليّة، تظلّ حقوقهم مقيَّدة، ويشعرون بأنّهم مغيَّبون عن الفضاء العامّ الذي تسيطر عليه الدولة وتعيد تشكيله بما يتناسب مع الهُويّة اليهوديّة (كتغيير أسماء القرى العربيّة بأسماء عبريّة -على سبيل المثال). ثانيًا، الدولة الإسرائيليّة تستمرّ في محاولات محو الهُويّة الفلسطينيّة من خلال استخدام تسميات على شاكلة "عرب إسرائيل" أو "أبناء الأقلّيّات"، ممّا يعزّز شعورًا بالانفصال عن هُويّتهم القوميّة. ثالثًا، يعانون من مصادرة الأراضي على نحوٍ مستمرّ، حيث جرى تدمير مئات القرى الفلسطينيّة بعد عام 1948 دون أن تُنشَأ أيّ قرية جديدة لهم، وهو ما يعمّق شعورهم بالاغتراب. وبالطبع إلى كلّ هذا أَضِف التمييزَ الممنهَج في توزيع الموارد والخدمات، ممّا يعزّز إحساسهم بالانفصال عن المجتمع الإسرائيليّ.

يعتمد إطار هذا التحليل على نظريّة رولان بارت في السيميائيّة الثقافيّة،[6] التي تضع المنتَجات الثقافيّة مثل الأدب كنصوص في الإمكان "قراءتها" للكشف عن صراعات أيديولوجيّة أعمق وعمليّات وسيرورات نفسيّة. باستخدام النظريّة السيميائيّة، أستكشف كيف يحوِّل أدبُ ما بعد الاستعمار البيتَ أو المنزلَ إلى استعارة لصراعات سياسيّة ووجوديّة أوسع، تعكس موضوعات الاغتراب والمقاومة والبحث عن المعنى في مفهوم البيت ولابيتيّة الوطن. بالإضافة إلى ذلك، توفّر نظريّة ﭘيير بايار[7] في النقد الأدبيّ التحليليّ النفسيّ أداة تفسيريّة لفَهْم هذه النصوص لا كتمثيلات للمنازل المادّيّة فحسب، بل كذلك كإسقاطات للصراعات النفسيّة الداخليّة التي تعيشها مجتمعاتُ ما بعد الاستعمار. يقترح بايار أن نوظّف الأدب لفَهْم علم النفس التحليليّ، بدلًا من المعهود، أي استخدام علم النفس التحليليّ لفَهْم الأدب كما هو شائع في النقد النفسيّ أو توظيف الأدب كأداة علاجيّة في غرفة العلاج كما في الببليوتراﭘيا.[8] من خلال هذا الدمج النظريّ بين السيميائيّة الثقافيّة والتحليل النفسيّ الأدبيّ، تتيح القراءة في الأدب ما بعد الاستعماريّ تفكيكَ التوتُّرات النفسيّة والسياسيّة التي تَسِم العلاقة بين الفرد والمكان؛ إذ لا يُستخدم الأدب هنا كمجرّد انعكاس لتجارب القمع، بل يُعاد توظيفه كمَصْدر لبناء معرفة نفسيّة وفكريّة بديلة تنبع من التجربة الأدبيّة ذاتها، على نحوِ ما يقترح بايار، وكأداة لفكّ ترميز البُنى الثقافيّة واللّاوعي الجماعيّ، على نحوِ ما يطرح بارت. وبناء على هذا،

6. Barthes, Roland. (1972). **Mythologies** (A. Lavers, Trans.). New York: Hill and Wang 117.

7. Bayard, Pierre. (2004). **Peut-on appliquer la littérature à la psychanalyse?**. Éditions de Minuit.

8. المودن، حسن. (2024). **من قال إنّ الناقد قد مات؟ ضدّ بارت، ماكدونالد، مانغينو**. ميلانو: منشورات المتوسّط.

يُصبح الأدب حقلًا لتشكيل أدوات نظريّة جديدة، وليس فقط لتطبيق أدوات قائمة، ممّا يسمح بفهمٍ أعمق لمفهوم اللّابيتيّة في سياقات الاستعمار وما بعده.

مفهوم البيت واللّابيتيّة

يرى أمل جمّال، في سياق قراءته الوجوديّة لمفهوم البيت،[9] أنّه ليس مجرّد مساحة مادّيّة نسكنها، بل هو حالة ذهنيّة (state of mind) تشكّل جوهر الحضور الإنسانيّ في العالَم. البيت هو تجسيد للعلاقة الجدليّة بين الجسد والمكان، بين الزمان والذاكرة، وبين الكينونة والانتماء. فقدان البيت -كما هو الحال في التجربة الفلسطينيّة- لا يعني فقدان المأوى فقط، بل هو زعزعة للبنْية الكيانيّة ذاتها، إذ يتحوّل غياب البيت إلى محفّز لتجربة فلسفيّة مؤلمة عن معنى "الوجود في العالم". من هنا، تصبح استعادة البيت أو تخيُّله في المنفى محاولة لإعادة بناء الذات وسط تمزُّق الزمان والمكان. ويضيف كذلك أنّه من منظور لُغويّ تفتح اللغة العربيّة أفقًا غنيًّا لفَهْم تعدُّديّة مفهوم البيت. فكلمة "بيت" مشتقّة من الجذر (ب.ي.ت) وفعله الثلاثيّ المجرَّد "باتَ" يعني أقامَ أو باتَ ليلته، بما يشير إلى رابطة زمنيّة ذات طابع يوميّ وسكنيّ. لكن الكلمة لا تقف عند هذا الحدّ، بل تنطوي على أبعاد وجوديّة أعمق؛ إذ "البيت" في المخيال العربيّ هو فضاء يتحقّق فيه الهدوء والسكون والاستمراريّة. كذلك تُفْصح الكلمة "مسكن" عن ترابط شديد بين المكان والطمأنينة، إذ يشير الجذر (س.ك.ن) وفعله الثلاثيّ المجرَّد إلى السكون والسَّكينة، لكنّه يحوي أيضًا دلالات على النفي والغياب، وصولًا إلى مفاهيم الموت أو الفناء كأقصى درجات الاستقرار. بهذا المعنى، فإنّ البيت في اللغة العربيّة ليس مجرّد بناء مادّيّ، بل هو تعبير عن الحنين إلى نوع من السَّكينة النهائيّة، عن توق إلى الانتماء في عالم مضطرب. لذا، حين يُسلب الفلسطينيّ بيته أو يُحوَّل إلى لاجئ، لا يُفقَد فقط المكان، بل يُصادَر منه ذلك المعنى اللُّغويّ العميق الذي يجعل من البيت مرآة للذات، وللكينونة، وللحلم بالطمأنينة. بينما يكون البيت هو موضع السكون والسكينة، يولد الوطن، كاتّساع هذا الإحساس إلى المجال الجمعيّ، حيث يصبح البيت الخاصّ امتدادًا للذاكرة الجمعيّة والانتماء السياسيّ. في السياق الفلسطينيّ، يتداخل البيت مع الوطن تداخلًا لا فكاك منه، إذ يتحوّل فقدان البيت إلى اختزال لفقدان الوطن، ويتحوّل الحنين إلى حجر أو مفتاح منزليّ إلى استعارة كلّيّة لمعنى العودة والكرامة والسيادة.

أمّا مصطلح اللّابيتيّة (Das Unheimliche)، فهو مفهوم قدّمه عالِم النفس سيچموند فرويد في مقالته الشهير التي حملت الاسم ذاته الصادرة عام 1919،[10] وهو يُستخدم لوصف الشعور الغريب والمريب الذي ينتاب الشخص عند مواجهة شيء يُفترض أن يكون من ذوي الألفة لكنّه يتحوّل إلى مخيف بشكل مفاجئ. تبعًا لفرويد، اللّابيتيّة تعني ذلك الشعور بالانزعاج الناتج عن رؤية شيء كان في السابق مألوفًا أو معروفًا ولكنّه تحوَّلَ إلى شيء غريب وغير مفهوم. يرتبط هذا المفهوم ارتباطًا وثيقًا بالتجربة النفسيّة الداخليّة للفرد، حيث تبرز لحظات يواجَه فيها ما جرى نسيانه أو قمعه في اللاوعي ويعود إلى الظهور في العقل الواعي بطريقة مقلقة وغير متوقَّعة؛ أي إنّ المصطلح يتماشى تمامًا وبوضوح مع نظريّة فرويد بشأن الكبت.

9. جمّال، أمل (2010). "المكان، والبيت، ومعنى الوجود: جدليّة الواقعيّ والمتخيَّل في التصوُّر الفلسطينيّ للبيتيّة". لدى: أزولاي، أريئيلا (محرّرة). **بيت بلا بيت، كتالوج المعرض الذي يحمل الاسم نفسه**. القدس: متحف على خطّ التّماسّ. ص. 70– 93. [بالعبريّة]

10. Freud, Sigmund. مرجع رقم 1.

في قراءة لقصّة الكاتب الألمانيّ إرنست هوفمان **رجل الرمال**[11] (Der Sandman)، يوضّح فرويد مفهوم اللّابيتيّة باعتباره الشعور بالغرابة المقلقة الذي ينشأ عندما يصبح المألوف غريبًا بطريقة غير متوقَّعة. يرى فرويد أنّ الرعب والغرابة في القصّة ينبعان من تداخل بين المألوف والمكبوت، إذ يتمحور النصّ حول فكرة الدمية الآليّة "أوليمپيا"، التي تبدو بشريّة لكنّها تثير شعورًا غير مريح بسبب فقدانها للحياة الحقيقيّة. فرويد يربط هذا الشعور بمفهوم عودة المكبوت[12] (The Return of the Repressed)، إذ تعود مخاوف الطفولة والرغبات المكبوتة للظهور بأشكال غامضة ومخيفة. وهكذا، تصبح اللّابيتيّة عند فرويد تجربة نفسيّة تتجسّد في الأدب عبر انكشاف ما كان يجب أن يبقى خافيًا، ممّا يحوّل ما هو مألوف إلى مصدر للقلق والرعب.

يعكس هذا المصطلح الآليّة التي تتداخل فيها العناصر المكبوتة من اللّاوعي مع التجربة الواعية. يرى فرويد، في نظريّته، أنّ النفس البشريّة تنقسم إلى ثلاثة مستويات: الوعي، واللّاوعي، وما قبل الوعي، وأنّ اللّاوعي يحتوي على الغرائز والرغبات والمخاوف والتجارب التي جرى كبتها نتيجة الصراعات النفسيّة.[13] اللّابيتيّة عند فرويد تمثّل تلك اللحظات التي تنبثق فيها هذه العناصر المكبوتة وتعيد نفسها في الوعي، لكن بطرق مشوَّهة وغريبة. بالنسبة لفرويد، هذا الشعور بالغرابة المريبة يَحْدث عندما يواجه الشخص ما جرى قمعه في اللّاوعي بطريقة غير مألوفة، ويشعر أنّ شيئًا كان من المفترَض أن يبقى خافيًا قد عاد إلى السطح على نحوٍ غير متوقّع.

تُوضِّح اللّابيتيّة الفرويديّة تداخلًا ديناميكيًّا بين الوعي واللّاوعي؛ فهي اللحظة التي يشعر فيها الفرد أنّ ما كان مطموسًا أو مدفونًا في أعماق النفس بدأ يتلمّس طريق عودته إلى الظهور بشكل مربك ومزعج في الوعي. وبهذا، تتمثّل عودة المكبوت، حيث يجري استحضار ما كان غير مرئيّ أو مكبوت على نحوٍ غير مباشر، وهو ما يخلق حالة من القلق والانفصال عن الواقع المألوف. فتصبح اللّابيتيّة أكثر من مجرّد تجربة عاطفيّة نفسيّة، بل تعكس أيضًا صراعات داخليّة بين القوى النفسيّة المختلفة داخل النفس والعقل، وتُبرِز كيف أنّ اللّاوعي يشكّل جزءًا كبيرًا من التجربة الإنسانيّة التي تتجاوز الوعي المباشر.

يعود جذرُ المصطلحِ اللُّغويُّ في اللغة الألمانيّة إلى كلمتَيْن، الأولى من بينهما هي Heimlich التي تعني "البيتيّ" أو "المألوف"، وفي ذات الوقت تدلّ على ما هو "مشفَّر" أو "خفيّ". إضافة Un في بداية الكلمة تعكس معناها، فتصبح Unheimlich التي تعني "ما هو غير بيتيّ" أو "غير المألوف" وكذلك ما توقّف عن كونه مشفَرًا أو خفيًّا. يركّز فرويد على هذا التعارض في المعاني ليُبرِز كيف أنّ ما كان يومًا مألوفًا يمكن أن يصبح مخيفًا أو مهدَّدًا. فهو يربط بين مفهوم اللّابيتيّة وعمليّة الكبت النفسيّ، حيث الأشياء التي قُمِعت في العقل اللّاواعي تعود لتظهر على السطح في شكل مُريب وغير متوقَّع. بالنسبة لفرويد، هذه العودة للذكريات أو التجارب المكبوتة تشكّل جزءًا أساسيًّا من هذا الشعور اللّابيتيّ.

يُستخدَم المصطلح اليوم في تحليل الظواهر الثقافيّة والنفسيّة التي تجمع بين ما هو مألوف وغريب في الوقت ذاته، مثل تأثير الاستعمار على الهُويّات الوطنيّة والثقافات الأصلانيّة. في هذا السياق، يجد الأفراد أنفسهم غرباء في أوطانهم أو هُويّاتهم، وهو ما يعكس على نحوٍ قويّ فكرة اللّابيتيّة كما وصفها فرويد.

---

11. هوفمان، إرنست. (2016). **رجل الرمال**. (ترجمة: عبّود، أنفال). الكويت: دار الخان. (تاريخ النشر الأصليّ 1816).

12. Freud, Sigmund. مرجع رقم 1.

13. Freud, Sigmund. (1993). **The interpretation of dreams**. (Brill, A.A. Trans.). Macmillan. (Original work published 1900).

تمحوَرَ مفهوم اللّابيتيّة عند فرويد حول التجربة الفرديّة، ومع ذلك، فإنّ هذا الشعور بالغرابة وعدم الألفة امتدّ لاحقًا ليشمل الهُويّات الجماعيّة والفضاءات السياسيّة، ممّا أتاح استخدامه كأداة تحليليّة لفَهْم أثر الاستعمار على الشعوب المقهورة. يتناول الناقد والمنظّر هومي بابا، في مقاله "العالم والبيت"،[14] مفهوم "اللّابيتيّة" ويركّز على الروابط بين الحيّز الخاصّ والحيّز السياسيّ. اختار هومي بابا استخدام مصطلح "اللّابيتيّة" الفرويديّ بترجمة unhomely بدلًا من الترجمة الإنجليزيّة المعتادة له uncanny، وذلك لتسليط الضوء على الأبعاد السياسيّة وما بعد الاستعماريّة للتجربة الوجوديّة للمنفى داخل المكان المنزليّ. بينما يركّز مصطلح uncanny على البعد النفسيّ للغرابة، يعكس unhomely إشكاليّة الانتماء والهُويّة في السياقات الاستعماريّة، حيث يشعر المستعمَر بأنّه غريب في وطنه بفعل الإقصاء والتهميش. في السياق العربيّ، يتوازى ذلك مع اختيار ترجمة مصطلح Das Unheimlich إلى "اللّابيتيّة" بدلًا من "المخيف" أو الغريب، ليعبّر عن انعدام الألفة في المكان الذي يُفترَض أن يكون مألوفًا، ممّا يجعل الترجمة نفسها أداة نقديّة تتناسب مع قراءة بابا للامتزاج الثقافيّ والتفاوض المستمرّ بشأن الهُويّة في الفكر ما بعد الاستعماريّ.

يدّعي بابا أنّ تجربة عدم الاستقرار والغربة في الحيّز الخاصّ (البيت) ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالعمليّات السياسيّة والاجتماعيّة الأوسع (العالم)، خاصّة في سياقات الاستعمار وما بعد الاستعمار. يؤكّد المقال على فكرة أنّ البيت ليس مساحة مادّيّة فحسب، بل هو أيضًا مساحة هُويّة وثقافة، حيث تخترق تجارب القمع والهجرة والخسارة البعد الخاصّ والحميم للحياة فيه.

يشير بابا إلى أنّ تجربة اللّابيتيّة هذه ليست خاصّة فحسب، بل تجسّد صدمات جماعيّة، خاصّة للأشخاص الذين عاشوا التهجير الاستعماريّ أو تجارب المنفى والتشرّد، أو أولئك الذين بَقُوا في بيوتهم وتغيّر عليهم الحكْم تحت وطأة الاستعمار. يربط بابا في مقالته بين أفكار التحليل النفسيّ وأفكار ما بعد الاستعمار، ويدّعي أنّ مساحة البيت الخاصّة هي في الواقع ساحة للصراع السياسيّ والثقافيّ، عندما يجري تقويض الفصل بين العامّ والخاصّ. إحدى الأفكار الرئيسيّة التي يطرحها بابا هي أنّ البيت، الذي من المفترض أن يكون حيّزًا حميميًّا وآمنًا، يصبح مكانًا تجري فيه تجربة الغربة والمنفى والتحوُّل إلى "آخَر". يدّعي بابا أنّ الفصل التقليديّ بين الحيّز الخاصّ والعامّ يختفي في واقعِ ما بعد الاستعمار، حيث تغزو تجارب القمع والهجرة والهُويّة الممزّقة الفضاءَ البيتيّ الحميم. في الواقع، يصبح البيت أو المنزل حلبة تتصادم فيها روايات السيطرة والمقاومة، ويجد الفرد نفسه يتعامل مع ندوب شخصيّة ومجتمعيّة.

يدّعي بابا: "إنّ اللحظة اللّابيتيّة تربط التناقضات الصادمة في التاريخ الشخصيّ والنفسيّ بالانقسامات الأوسع للوجود السياسيّ".[15] تشير فكرة "اللحظة اللّابيتيّة" كما يطرحها هومي بابا إلى تلك اللحظة التي تلتقي فيها الصراعات الداخليّة والتوتُّرات النفسيّة الشخصيّة مع الانقسامات الأوسع في المجال السياسيّ. في هذه اللحظة، يصبح الحيّز البيتيّ المألوف مشحونًا بالتوتُّرات الناتجة عن تجارب الفرد الشخصيّة، سواءٌ أكانت مرتبطة بالذكريات الصادمة، أَمْ بالاغتراب، أَمْ بالنزوح، لتتشابك مع القوى السياسيّة التي تسهم في تشكيل تلك التجارب. فالبيت أو المنزل الفعليّ يتحوّل إلى موقعٍ حيث

14. Bhabha, Homi. مرجع رقم 2.

15. "The unhomely moment relates the traumatic ambivalences of a personal, psychic history to the wider disjunctions of political existence." Bhabha, Homi. 144 .مرجع رقم 2. ص.

تتلاقى السياسة والتاريخ الشخصيّ والجماعيّ لتخلق إحساسًا بالغربة وغياب الاستقرار. هذا التداخل بين ما هو شخصيّ وما هو سياسيّ يُظهر كيف أنّ التاريخ النفسيّ لدى الفرد، الذي غالبًا ما يكون محمَّلًا بالصدمات والتناقضات، لا يمكن فصله عن السياق السياسيّ الأكبر الذي يعيشه. في هذا المعنى، تصبح تجربة الفرد النفسيّة انعكاسًا لتوتُّرات السياسة والانقسامات الاجتماعيّة الأوسع، وهو ما يخلق لحظة فريدة من اللّابيتيّة والتشوُّش بين الخاصّ والعامّ.

معظم النقاشات التي تدور حول تجربة اللّابيتيّة لدى الفلسطينيّين تركّز على تجربة المنفى والترحيل التي يعيشها المهجَّرون واللاجئون، وخاصّة في سياق الفلسطينيّين الذين نزحوا عن ديارهم أثناء النكبة وأولئك الذين يعيشون في مخيَّمات اللاجئين أو في الشتات.[16] يجري التعبير عن تجربة اللّابيتيّة في الخسارة الجسديّة للوطن والصراعات العاطفيّة والسياسيّة للحفاظ على هُويّتهم وذاكرة الوطن من خلال رمزيّة مكان لا تُمْكِن العودة إليه بالطريقة المألوفة. يركّز الخطاب بصورة أساسيّة على غياب الوطن والشعور بأنّ المكان المألوف يصبح غريبًا بعد تجارب الهجرة القسريّة والإقصاء. ولا شكّ في أنّ نقاش البيتيّة وغيابها مرتبط ارتباطًا مباشرًا بسؤال ماهيّة البيت والمنزل، والخيمة والمخيَّم، والبيت المهدوم والرُّكام، والوطن والمنفى، وجميع السياقات التي تندرج تحت هذا الحيّز المتخيَّل أو المنشود المختزَل في الكلمة "بيت".

في ما يلي، أنتقل إلى قراءة ثلاثيّة في أعمال أدبيّة ما بعد استعماريّة تجسّد هذا التحوُّل من المألوف إلى الغريب، ومن البيت إلى اللّابيت. ترمي هذه القراءات إلى تفكيك الكيفيّة التي بها تعكس كلّ روايةٍ من هذه الأعمال تجربةَ اللّابيتيّة من خلال خصوصيّة سياقها التاريخيّ والسياسيّ.

"كلّ ما تعلّمناه منكم هو كيف نفسد مجتمعاتنا"

رواية جامايكا كينكيد ***مكان صغير***[17] تصف بكلّ ألم وصدق كيف تحوّلت أنتيجوا من وطن مألوف إلى مساحة من العزلة والقطيعة. يجسّد عمل كينكيد التنافر بين جمال الجزيرة والصدمة التاريخيّة التي تحملها بسبب الاستعمار. إنّ أنتيجوا، التي ينبغي أن تمثّل مكانًا للانتماء لسكّانها الأصليّين، أصبحت بدلًا من ذلك مليئة بالهياكل الاستعماريّة، الجسديّة والنفسيّة، التي تعطّل الشعور بالوطن. بالنسبة لكينكيد، تكمن اللّابيتيّة في حقيقة أنّ سكّان الجزيرة الأصليّين يجدون أنفسهم غرباء في أرضهم؛ إذ إنّ "وطنهم" قد تغيّر تغيُّرًا عميقًا بسبب قرون متواصلة من الاستغلال والاستعمار البريطانيّ. المناظر الطبيعيّة في أنتيجوا، بجمالها الخلّاب الذي يحظى بإعجاب السيّاح، تخدم كواجهة تخفي الندوب العميقة التي خلّفها الاستعمار في الجزيرة، وتُحوِّل ما ينبغي أن يكون بيتًا آمنًا إلى مساحة مُريبة وحيّزًا لابيتيًّا من الغربة.

رواية ***مكان صغير*** تتميّز بكونها مكتوبة على شكل رسالة موجَّهة إلى السائح الذي يزور الجزيرة، ويجعله شريكًا في استمراريّة الاستغلال الاستعماريّ عبر السياحة. بأسلوب مباشر وصريح، تتحدّث

16. El Masri, Yafa. (2020). 72 Years of homemaking in waiting zones: Lebanon's “permanently temporary” Palestinian refugee camps. **Frontiers in Sociology**, 5. Pp. 1-13; Hammouche, Malika. (2020). 'Unhomeliness' and the Arab Woman in Fadia Faqir's Pillars of Salt (1996). **AWEJ for Translation & Literary Studies**, 4 (2). Pp. 16- 30; Feldman, Ilana. (2006). Home as a refrain: remembering and living displacement in Gaza. **History & Memory**, 18 (2). Pp. 10- 47.

17. Kincaid, Jamaica. مرجع رقم 3.

كينكيد عن الفجوة القائمة بين ما يراه السائح من جمال طبيعيّ وما يختبره السكّان المحلّيّون من آثار الاستعمار المستمرّة، كالفساد والفقر والإحباط. من خلال هذه الرسالة، يجري تحويل تجربة السياحة الاستعماريّة السطحيّة إلى نقد اجتماعيّ عميق للعلاقة بين التاريخ والهُويّة والماضي الاستعماريّ الذي لا يزال يعكّر حياةَ الأنتيجوّيّين اليوميّةَ.

في فِقْرة رهيبة بحدّ ذاتها من **مكان صغير**، تعبّر لنا كينكيد عن هذا الشعور قائلة:

> هل سبق لك أن تساءلت بينك وبين نفسك لماذا يبدو أنّ كلّ الناس مثلي قد تعلّموا منك كيف يَسجنون ويَقتلون بعضهم البعض، وكيف يَحْكمون بشكل سيّئ، وكيف يأخذون ثروات بلادنا ويضعونها في حسابات مصرفيّة سويسريّة؟ هل سبق لك أن تساءلت لماذا يبدو أنّ كلّ ما تعلّمناه منكم هو كيف نُفْسِد مجتمعاتنا وكيف نكون طغاة؟ لا بدّ لك من الإقرار بأنّ هذا بالأساس ذنبكم. بعد إذنك، سوف أعرض لك كيف نَراكم. لقد جئتم. أخذتم أشياءَ ليست لكم، أشياءَ لم تطلبوها حتّى، ولو للمظاهر. كان بإمكانكم أن تقولوا: "هل لي أن أحصل على هذا، من فضلكم؟" وعلى الرغم من أنّه كان من الواضح للجميع أنّ "نعم" أو "لا" من طرفنا لن تؤثّرا على النتيجة النهائيّة، فإنّهما قد تبدوان أفضل بكثير من عدمهما. صدِّقني، كان بإمكانكم الحصول على الكثير بهذه الطريقة. على الأقلّ، كان عليّ أن أعترف بأنّكم كنتم مهذَّبين. لقد قتلتم الشعب. سجنتم أبناءه. سرقتموهم. لقد فتحتم بنوككم الخاصّة ووضعتم أموالنا فيها. الحسابات كانت بأسمائكم. البنوك كانت بأسمائكم. لا بدّ أنّه كان هناك بعض الأشخاص الطيّبين بينكم، لكنّهم بَقُوا في البيت. وهذه هي النقطة بالضبط. ولهذا السبب هم طيّبون. لقد بَقُوا في البيت. ولكن مع ذلك، عندما تفكّر في الأمر، لا بدّ أنّك تشعر بالحزن قليلًا. أخيرًا، بعد سنوات وسنوات من التحريض، يُلقي أشخاص مثلي خطابات مؤثّرة وبليغة ضدّ ظلم هيمنتكم علينا. وأخيرًا، بعد العثور على جثثكم المشوّهة أنت وزوجتك وأطفالك في منزلك. ذلك المنزل الجميل والواسع من طابق واحد، على حافة مزرعة المطّاط الخاصّة بك، حيث عثر عليكم أحد خدم منزلك الكثيرين (لم يكن أيّ من هذا ملْكك قَطّ، ولن يكون ملْكك أبدًا) – فقط حينها تقول لي: "حسنًا، أنا أغسل يدي من كلّ شيء. أغسل يدي منكم، وسأرحل الآن". وعندها تغادرون. ومن الآن فصاعدًا تشاهدوننا عن بعد، ونحن نفعل بأنفسنا الأشياءَ نفسها التي كنتم تفعلونها بنا. وقد تشعرون أنّ هناك ما هو أكثر من ذلك بالنسبة لكم، وقد تشعرون أنّكم قد فهمتم الآن معنى عصر التنوير (على الرغم من أنّه، بقدر ما أستطيع أن أرى، لم يُفِدْكم كثيرًا)؛ لقد أحببتم المعرفة، وحيثما ذهبتم حرصتم على بناء مدرسة ومكتبة (نعم، وفي هذَيْن المكانَيْن شوّهتم أو محوتم تاريخنا ومجّدتم تاريخكم).
>
> [...]
>
> أمّا كيف كنّا قبل أن نلتقي بكم، فلم أعد أهتمّ بذلك. لا أجد الراحة في أيّ فترة زمنيّة سيطر فيها أسلافي، ولا في أيّ توثيق لحضارات متقدّمة تحدّرتُ منها. حتّى لو أنّني تحدّرتُ حقًّا من أشخاص كانوا يعيشون مثل القرود على الأشجار، فهذا بلا شكّ ما زال أفضل ممّا حدث لي، وما أصبحتُ عليه بعد أن التقيتك.[18]

18. المرجع السابق. ص. 34.

هذا الاقتباس الرائع يلخّص مفهوم الشعور باللّابيتيّة بأبسط طريقة ممكنة، من خلال تصوير الاغتراب العميق الذي يعاني منه المستعمَرون في ما يتعلّق بأرضهم وهُويّتهم. لقد أفسد النفوذ الاستعماريّ كلَّ ما هو مألوف -الأرض والثقافة والمجتمع- وحوّله إلى ما هو عدائيّ لا يمكن التعرُّف عليه. تشير كينكيد هنا إلى الكيفيّة التي بها جلب المستعمرون ممارَسات مدمِّرة، كالفساد والسَّجن والسرقة على سبيل المثال، وبذلك حوّلوا ما كان ينبغي أن يكون "وطنًا" إلى بيئة غريبة وقمعيّة. وقد أدّى فرض الحكْم والقِيَم الاستعماريّة إلى خلق تنافر بين السكّان المحلّيّين وثقافتهم الخاصّة، ممّا حرمهم لا من مواردهم فحسْب، بل كذلك من شعورهم بأيّ صورة من الانتماء والأمن. فضلًا عن هذا، إنّ عرض كيفيّة محو تاريخ الأصلانيّين في أنتيـﭽوا وتشويهه من قِبل المستعمِرين يسلّط الضوء على مدى تأصُّل هذا الشعور باللّابيتيّة. ادّعاء الملْكيّة على الأرض، والسيطرة على رواية تاريخ السكّان المحلّيّين، والتلاعب بالمؤسَّسات، أدّت كلّها إلى بَلْوَرة شعور بالغربة لدى المستعمَرين في وطنهم، هو الشعور باللّابيتيّة. تصل هذه القطيعة إلى نقطة حرجة عندما تعترف كينكيد بأنّها لم تَعُدْ تهتمّ بماضيها في ما قبل الاستعمار؛ وذلك أنّ الضرر الذي أحدثه الأخير قد ترك ندبة دائمة. هذا التحوُّل، حيث يشعر الماضي بأنّه لا يمكن الوصول إليه، ويمتلئ الحاضر بالخسارة والغربة، يوضّح بصورة مثاليّة ديناميكيّات اللّابيتيّة للشعوب المقهورة: ما كان مألوفًا في السابق أصبح غريبًا على نحوٍ لا رجعة فيه.

يعكس سرد كينكيد التنافر العاطفيّ الذي يشعر به شعب أنتيـﭽوا، الذين باستمرار يجري تذكيرهم بماضيهم الاستعماريّ من خلال الهندسة المعماريّة والمؤسَّسات وبِنْية حياتهم اليوميّة. التجربة اللّابيتيّة الموصوفة هنا هي تجربة العيش في مكان مألوف بشكل وثيق ولكنّه مريب وغريب باستمرار؛ إذ إنّ بقايا الاستعمار موجودة دائمًا وتعكّر صَفْوَ كلّ إمكانيّة لخلق أيّ هُويّة مستقلّة ومتحرّرة تمامًا. تتفاقم هذه القطيعة بسبب وجود السيّاح، الذين يتجاهل تقديرُهم السطحيُّ لجَمال الجزيرة الألمَ العميقَ والتاريخَ الذي لا يستطيع أهل أنتيـﭽوا الهروب منه. تتمكّن كينكيد في هذا النصّ من وصف أصغر وأبسط الأمور التي يواجهها المستعمَر، بطريقة تمكِّنُ القارئ من استكشاف الآثار النفسيّة والعاطفيّة للاستعمار على الهُويّة والانتماء. يتمثّل هذا في تسليط النقد على كيفيّة تجنيد التجربة الاستعماريّة في سبيل كسر إحساس سكّان أنتيـﭽوا بذاتهم، وهو ما يجعل استعادة أمانهم في منازلهم إمكانيّة مستحيلة.

إذًا لا يتمثّل هذا الشعور باللّابيتيّة هنا في فضاء أنتيـﭽوا المادّيّ فحسب، بل يتمثّل كذلك في الاستعمار الداخليّ الذي يواصل تشكيل هُويّات شعبها. إرث التعليم الاستعماريّ والحكْم والتسلسل الهرميّ الاجتماعيّ، مثلًا، قد خلق شعورًا بالنزوح حتّى داخل عقول السكّان، وهو ما يشوّه مفهوم البيت. هذا الانسلاخ عن البيت والوطن، وإبعادُ إمكانيّة التعرُّف عليه، كونه مرتبطًا بصدمات القمع الاستعماريّ، يخلقان نفورًا من كلّ ما له علاقة بالبيتيّة. بهذه الطريقة تُبلْوِر لنا كينكيد، من خلال ***مكان صغير***، لابيتيّة الوطن المستعمَر، الذي يبقى مستعمَرًا في النفس، حتّى بعد انتهاء الاستعمار الفعليّ له، حيث يكون الوعد بالعودة إلى الوطن ملوَّثًا إلى الأبد بالآثار المتبقّية من الاستعمار، ممّا يخلق اغترابًا عميقًا ودائمًا للأشخاص الذين يطلقون عليه وطنهم.

كما تصف جامايكا كينكيد في ***مكان صغير*** كيف أنّ الاستعمار خلق بيئة يشعر فيها السكّان الأصليّون بأنّ وطنهم لم يَعُدْ لهم، يمكننا رؤية تجربة مماثلة لدى الفلسطينيّين المواطنين في إسرائيل، الذين

يواجهون تفاقم الجريمة المنظَّمة وغياب الدولة في محاربة الفساد داخل مجتمعهم. في ***مكان صغير***، تصف كينكيد كيف استمرّ الاستعمار في تدمير الهياكل الاجتماعيّة عبْر مؤسَّسات فاسدة تحافظ على التفاوت الطبقيّ، تمامًا كما يشعر الفلسطينيّون داخل إسرائيل بأنّ الدولة تتجاهل أزماتهم الأمنيّة بينما تفرض سلطتها عليهم في مجالات أخرى. الفساد وانعدام العدالة، سواء أكان في أنتيچوا أَمْ في الداخل الفلسطينيّ، يخلقان شعورًا باللّابيتيّة؛ إذ يصبح الوطن مكانًا مألوفًا ظاهريًّا لكنّه مليء بالتهديدات والخوف، ممّا يجعل سكّانه يشعرون بالغربة وهم داخله.

"وكأنّه يشرح شيئًا معقَّدًا لطفل"

أمّا في ***ماتيچاري***، رواية الكاتب الكينيّ نچوچي وا ثيونچي،[19] فيتجلّى مفهوم اللّابيتيّة من خلال علاقة بطل الرواية ببيته ووطنه الذي عرفه من قبل، وبالمجتمع الذي يعود إليه بعد غياب طويل. ***ماتيچاري***، المناضل من أجل الحرّيّة الذي خرج من الغابة بعد هزيمة المستعمِرين الظالمين، يعود إلى أرضه متوقّعًا استعادة وطنه وحياة السلام. ومع ذلك، فإنّ البيت الذي تَصَوَّرَه لم يَعُدْ موجودًا. هذا البيت، هذا المنزل، الذي يرمز إلى مكان الانتماء والأمن والملْكيّة، أصبح الآن محتلًّا من قِبل قوى جديدة سيطرت على البلاد في أعقاب الحكم الاستعماريّ. يعكس هذا التحوُّل الذي جرى للمنزل، من مكان آمِنٍ إلى مكان للاغتراب، مفهوم فرويد للّابيتيّة، حيث يصبح المألوف غريبًا، وهو ما يزعزع إحساس الشخص بالهُويّة والانتماء. يعكس إحساس ماتيچاري بالنزوح داخل أرضه هذا التوتّر الغريب (اللّابيتيّ)، لأنّه لم يعد قادرًا على التعرُّف على العالَم الذي ناضل من أجله، وبدلًا من ذلك يواجه واقعًا يحرمه من السلام الذي كان يأمل في تحقيقه.

في أحد المَشاهد في الرواية، يصل ماتيچاري إلى بيته ويطالب بحقّه فيه من الشخصيّتَيْن اللتَيْن يلتقيهما بجانبه: رجل أصلانيّ أسوَد البشرة، ورجل أبيض هو ابن المستوطِن. يطالب ماتيچاري بالبيت الذي بناه بيديه، وسرعان ما يتحوّل البيت إلى رمز لتلك الحقوق الجماعيّة التي ضُحِّيَ بها خلال العصور الاستعماريّة:

- وماذا تريد؟

- مفتاح بيتي.

- هل تعرف من يملك هذا العقار؟ هل تعرف لمن هذا المنزل؟

- بالطبع أعرف! إنّه ملْكي. إنّه ملْك لي ولشعبي.

- بوب، يقول منزله ومنزل عائلته... كيف أصبح ملكك بالضبط؟

تحدّث إلى ماتيچاري باستعلاء، كمثل شرطيّ رصين يستجوب سِكّيرًا.

هذا السؤال، "كيف أصبح ملْكك بالضبط؟"، أثار ذكريات أخرى في ماتيچاري؛ فقد سرح بذهنه إلى أماكن بعيدة وأزمنة قديمة. تنهّد، وترك البوّابة وتحدّث إلى الرجل الأسود بصبر ولطف، وكأنّه يشرح شيئًا معقَّدًا لطفل، بلغة لا يفهمها سوى الطفل.

19. wa Thiong'o, Ngugi. المرجع رقم 4.

يا بُنيّ، أتسألني كيف أصبح هذا البيت ملْكي؟ إنّها قصّة طويلة... هناك الكثير ممّا يمكن قوله... هل ترى هذا البيت؟ هل ترى مزارع الشاي هذه وهذا الطريق؟ من الذي أعدّ كلّ هذه الأشياء؟ انتبه، أنا لم أبدأ هذا كلّه بالأمس. لقد رأيت أشياء كثيرة على مرّ السنين. فكّر بنفسك، لقد كنتُ هناك في زمن البرتغاليّين، وفي زمن العرب، وفي زمن البريطانيّين.

انظر، أنا لا أريد دروسًا في التاريخ! لقد سألتك فقط عن البيت.

هذا البيت؟ هل تعتقد أنّ لهذا البيت قصّة مختلفة عن قصّة هذه الأيدي؟ الأيدي هي صانعة التاريخ البشريّ.

[...]

تسألني ماذا أعرف عنه؟ عن الرجل-الأبيض-الذي-يحصد-حيث-لم-يزرع-قَطّ؟ كيف يمكنني أنا، الرجل-الأسود-المنتِج، ألّا أعرف الرجل-الأبيض-الذي-يحصد-حيث-لم-يزرع-قَطّ؟ أو كيف تعتقد أنّ الصراع كلّه بدأ؟ نعم، بدأ كلّ شيء عندما فهمت حقيقته وكيف بدأ كلّ شيء. بالضبط هكذا. يمكنك أن تتخيّل ذلك. في صباح أحد الأيّام، استيقظت ونظّفت أذنيَّ وعينيَّ ثمّ ذهبت إلى المستوطِن ويليامز؛ وقلت له: يا عشيرة الطفيليّات، ليس ثمّة ليل طويل لا ينتهي ببزوغ الفجر. ولا فجر نهار مثل الآخر. اليوم يبدأ يوم جديد، والشمس تشرق ساطعة في السماء. دعني أسألك بعض الأسئلة. من بنى هذا البيت؟ من زرع وحصد هذه الأرض؟ استمع إليّ بعناية. البَنّاء يطالب بالبيت الذي بناه، والفلّاح بأرضه. من يظنّ نفسه هذا الرجل-الأبيض-الذي-يحصد-حيث-لم-يزرع-قَطّ؟ هل يظنّ أنّه ممثّل الله هنا على الأرض؟ اذهب إلى بيتك. من اليوم فصاعدًا يرفض البنّاء أن يطلب مكانًا يستطيع أن يسند رأسه إليه؛ ويرفض الفلّاح أن يموت جوعًا؛ ويرفض الخيّاط أن يعيش عاريًا؛ ويرفض المنتِج أن يتنازل عن ثروته.[20]

تجسّد هذه اللحظة في الحِوار التوتُّر العميق بين الماضي والحاضر، حيث يجري التشكيك في حقّ ماتيچاري في بيته، وهو حقّ يعكس تاريخًا من العمل والمقاومة، لكن في الحاضر ينكره النظام القائم. إنّ الصراع حول ملْكيّة البيت هنا ليس مجرّد مسألة قانونيّة، بل هو تجسيد للصراع على هُويّة الشعب ومطالبته بالعدالة في مجتمعِ ما بعد الاستعمار. هذا الصراع حول مُلْكيّة البيت يُبرز مفهوم اللّابيتيّة، إذ يتحوّل المكان الذي كان مألوفًا وآمنًا في الماضي إلى فضاء غريب ومهدِّد. ماتيچاري، الذي يرى في البيت رمزًا لانتصاره، يجد نفسه فجأة في موقف يشعر فيه بالاغتراب عن بيته وعن العالم الذي ناضل من أجله، ممّا يضفي شعورًا عميقًا بالغربة، وهو تجسيد للّابيتيّة في سياقِ ما بعد الاستعمار.

مفهوم اللّابيتيّة في ماتيچاري يرتبط كذلك ارتباطًا وثيقًا بموضوعات الهُويّة والذاكرة. عودة ماتيچاري إلى منزله تطاردها ذكريات النضال من أجل التحرير، الذي كان ينبغي أن يجلب الحرّيّة، ولكنّه بدلًا من ذلك يترك المناضل مشوَّشًا ومغتربًا في وطنه. لم يَعُد المنزل، الذي بناه ذات يوم بيدَيْه، رمزًا لانتصاره الذي حقّقه بشقّ النفس، بل أصبح مساحة أفسدتها القوى السياسيّة الجديدة. وقد تفاقَمَ

20. المرجع السابق ص. 44– 46.

هذا الشعور باللّابيتيّة من خلال إدراك ماتيچاري أنّ هياكل القمع نفسها التي حاربها إبّان فترة الاستعمار لا زالت تعمل، وإن كانت تحت قيادة جديدة، في نظامٍ ما بعد الاستعمار، بل يشارك فيها الآن كذلك الرجل الأسود. يجري تكرار الإيقاعات المألوفة للاستغلال الاستعماريّ في دولةٍ ما بعد الاستعمار، ممّا يخلق تنافرًا بين توقُّعات التحرُّر والواقع المُعاش المتمثّل في القهر المستمرّ. يكمن الشعور باللّابيتيّة هنا، في الشرخ العميق بين الماضي والحاضر، إذ أصبح ما كان مألوفًا ذات يوم -النضال من أجل الحرّيّة- غريبًا وعديم الجدوى في مواجهة شكل جديد من أشكال القمع، لكنّه مشابه ومألوف بشكل مخيف- أو لابيتيّ.

يستخدم ماتيچاري الحاجة إلى بيتيّة البيت أداةً للتشكيك في طبيعة المنزل والانتماء إليه في سياقِ ما بعد الاستعمار. بالنسبة لماتيچاري، المنزل ليس مجرّد هيكل أو بناء مادّيّ، بل هو كناية عن الشعب نفسه، والذي يجب أن يوفّر حيّزًا ومساحة للعدالة والتكاتف المجتمعيّ. ومع ذلك، فإنّ واقع ما بعد الاستعمار يكشف عن حيّزات ممزَّقة؛ إذ يجري تقويض مُثُل الوطن -الحرّيّة والملْكيّة والهُويّة- باستمرار من قِبل القوى الاستعماريّة الجديدة. يتبلور الشعور باللّابيتيّة على مدار رحلة ماتيچاري في الرواية وهو ينتقل من حيّز إلى آخر، في مَشاهد طبيعيّة من المفترَض أن تكون مألوفة له، لكنّه يشعر فيها بالغربة والتهديد. رحلته طَوال الرواية ليست مجرّد بحث جسديّ مادّيّ عن منزل، بل هي سعي نفسيّ ووجوديّ للتوفيق بين نموذج الوطن المحرَّر والواقع الصارخ المتمثّل في استغلاله المستمرّ. بهذه الطريقة، يجسّد "ماتيچاري"، البطل والرواية، لابيتيّةَ ما بعد الاستعمار، حيث يجري تحريف الوعد بالوطن، وهو ما يخلق شعورًا عميقًا بالغربة لأولئك الذين كانوا سكّانه الشرعيّين في السابق.

عائد إلى لابيتيّة حيفا

بعد الخوض في اللّابيتيّة كما وصفها فرويد، وكما وُسّعت حدودها في أدبِ ما بعد الاستعمار، ننتقل إلى السياق الفلسطينيّ العينيّ المباشر لهذا المفهوم، من خلال رواية غسّان كنفاني ***عائد إلى حيفا***.[21] إنّ تجربة التطهير العِرْقيّ والتهجير التي عاشها الفلسطينيّون، وما زالوا يعيشونها منذ النكبة، تُبلوِر فلسطين الوطن عامّةً (البيت؛ الأرض؛ الهُويّة) من كونه مألوفًا يحنّ إليه الفلسطينيّ، إلى لابيتيّة وغربة مثيرة للهلع والفقدان وعدم الانتماء. بهذا المعنى، فإنّ كلّ محاولة للعودة إلى "الوطن" يصاحبها شعور بالخسارة، حيث إنّ المنزل الذي كان مألوفًا قد اختفى، ولم يتبقَّ منه سوى ذكرى باهتة لِما كان عليه.

تدور أحداث الرواية القصيرة حول زوجَيْن فلسطينيَّيْن، سعيد وصفيّة، اللذَيْن يعودان إلى مدينة حيفا بعد مرور عشرين عامًا على تهجيرهما منها خلال نكبة عام 1948. يسافران لاستكشاف بيتهما القديم، وليسترجعا -ذهنيًّا على الأقلّ- ما تركاه وراءهما، ابنهما الرضيع خلدون، الذي اضطُرّا إلى تركه أثناء الفرار. عند وصولهما، يكتشفان أنّ البيت أصبح الآن بملْكيّة عائلة يهوديّة ناجية من المحرقة، وأنّ ابنهما الذي تُرِك قد تولّت تربيتَه هذه العائلةُ وأصبح جنديًّا إسرائيليًّا يدعى دوف.

---

21. كنفاني، غسّان. مرجع رقم 5.

في قراءة ***عائد إلى حيفا***، بجميع فصول الكتاب وصفحاته وكلماته، يشعر القارئ باللّابيتيّة الصارخة. كلّ اقتباس من الكتاب قد يمثّلها بطريقة أفضل من أيّ وصف يأتي به فرويد ويعيد صياغته بابا. في بداية الرواية، عندما يقترب الزوجان من حيفا، تبدأ بلورة مفهوم اللّابيتيّة بشدّة:

..."ضاعت الطريق وراء ستار من الدموع، ووجد نفسه يقول لزوجته صفيّة:

- هذه هي حيفا يا صفيّة!

وأحسّ المِقْوَد ثقيلًا بين قبضتَيْه اللتَيْن أخذتا تنضحان العرق أكثر من ذي قبل، وخطر له أن يقول لزوجته: إنّني أعرفها، حيفا هذه، ولكنّها تنكرني، ولكنّه غيّر رأيه"...[22]

رغم معرفته بحيفا، يشعر سعيد بأنّ المدينة تنكره الآن، بعد عشرين عامًا، وكأنّها تحوّلت من مكان مألوف وآمِن إلى مكان غريب وغير مرحِّب. هذا التحوُّل من الألفة إلى الغرابة هو جوهر اللّابيتيّة، حيث يصبح ما كان في السابق جزءًا من هُويّة الشخص ومَصْدرًا للراحة والشعور بالانتماء مَصْدرًا للقلق والاستياء. العَرَق والضغط الذي يشعر به على المِقْوَد يجسّدان هذا التوتُّر النفسيّ والجسديّ الذي يَنتج عن مواجهة التحوُّل المفاجئ وغير المريح من الألفة إلى الغرابة.

بعد دخول المدينة، يختلط على سعيد الماضي بالحاضر، وتنهال عليه الذكريات من يوم خروجه من المدينة. في هذه اللحظة، يشعر بأنّه يعرف كلّ شارع وكلّ التفاف في المدينة، ولكنّه كذلك يعيش بعد العشرين عامًا عنها، حتّى يصل البيت.

> وبدآ يصعدان، دون أن يترك لنفسه أو لها فرصة النظر إلى الأشياء الصغيرة التي كان يعرف أنّها ستخضّه وتُفقده اتّزانه: الجرس، ولاقطة الباب النحاسيّة، وخربشات أقلام الرصاص على الحائط، وصندوق الكهرباء، والدرجة الرابعة المكسورة من وسطها، وحاجز السلّم المقوّس الناعم الذي تنزلق عليه الكفّ، وشبابيك المصاطب ذات الحديد المتصالب، والطابق الأوّل حيث كان يعيش محجوب السعدي، وحيث كان الباب يظلّ مواربًا دائمًا، والأطفال يلعبون أمام الدار دائمًا، ويملؤون الدرج صراخًا، إلى الباب الخشبيّ المغلَق، المدهون حديثًا، والمغلَق بإحكام.
>
> وضع إصبعه على الدرج وهو يقول بصوت خافت لصفيّة:
>
> - غيّروا الجرس.
>
> وسكت قليلًا ثمّ تابع:
>
> -والاسم طبعًا.
>
> واغتصب ابتسامة غبيّة، وشدّ يده فوق يدها وأحسّ بها باردة ترتجف، ووراء الباب سمعا صوت خطوات تجرّ نفسها ببطء، وقال لنفسه: شخص عجوز بلا شكّ، وقرقع المزلاج بصوت مكتوم، وببطء انفتح الباب.[23]

22. المرجع السابق.

23. المرجع السابق. ص. 27– 28.

تقديم كلّ هذه التفاصيل الصغيرة، التي كانت في السابق مألوفة وآمنة بالنسبة لسعيد، يعمّق الشعور باللّابيتيّة لدى القارئ والبطل في ذات الوقت. كلّ تفصيل (الجرس؛ خربشات أقلام الرصاص؛ صندوق الكهرباء؛ الدرجة المكسورة) يمثّل ذكريات مرتبطة بالماضي وبالمنزل الذي كان يمثّل "الوطن"، لكن تلك التفاصيل تغيّرت ولم تَعُدْ ملْكًا لسعيد، لم تَعُدْ تشعّ أمانًا وطمأنينة. عندما يلاحظ سعيد أنّ الجرس قد تغيّر، يشعر أنّ اسمه لم يعد موجودًا، وأنّ البيت الذي كان مألوفًا له في السابق أصبح مكانًا غريبًا ومختلفًا. الجرس أوّلًا، ثمّ الاسم على المدخل، هما رمزان للهُويّة والانتماء، للملْكيّة والحضور. كلاهما يعزّزان فكرة أنّ البيت الذي كان يمثّل مأوى في الماضي لم يَعُدْ يعترف به، وصار ينكره، كما فعلت المدينة في الاقتباس السابق.

يرمز هذا المشهد كذلك إلى الفجوة بين ذكريات سعيد وصفيّة والواقع الجديد، ويجسّد ألم خسارة الفلسطينيّين الشخصيّة والجماعيّة. ترمز التغييرات الخارجيّة -كالجرس المستبدل والاسم الجديد، على سبيل المثال- إلى المحو الثقافيّ للهُويّة الفلسطينيّة واستحالة العودة إلى الماضي.[24] لكن التعامل مع التغيير يفرض على سعيد فَهْم أنّه يجب عليه تحرير الحنين وتحويل الخسارة إلى أداة سياسيّة يكون فيها النضال من أجل مستقبل مختلف ضروريًّا.[25] لا تمثّل الفجوة بين الماضي والحاضر فقدان الوطن الماديّ فحسب، بل تمثّل كذلك فقدان هُويّة الفلسطينيّين المعرفيّة، حيث يواجهون محوًا كلّيًّا لذاكرتهم وارتباطهم التاريخيّ بأرضهم.[26]

بعد دخول سعيد وصفيّة إلى البيت، تُواصل اللّابيتيّة التفاقم:

> وتبعها سعيد، وبجانبه صفيّة، بخطوات متردّدة بطيئة، وأخذا يميّزان الأشياء بشيء من الدهشة. لقد بدا له المدخل أصغر قليلًا ممّا تَصَوَّرَه وأكثر رطوبة، واستطاع أن يرى أشياء كثيرة اعتبرها ذات يوم، وما يزال، أشياءه الحميمة الخاصّة التي تَصوَّرَها دائمًا ملْكيّة غامضة مقدّسة لم يستطع أيّ كان أن يتعرّف عليها أو أن يلمسها أو أن يراها حقًّا. ثمّة صورة للقدس يتذكّرها جيّدًا ما تزال معلّقة حيث كانت، حين كان يعيش هنا. وعلى الجدار المقابل سَجّادة شاميّة صغيرة كانت دائمًا هناك أيضًا.
>
> وأخذ يخطو ناظرًا حواليه، مكتشفًا الأمور شيئًا فشيئًا، أو دفعة واحدة، كمن يصحو من إغماء طويل. وحين صارا في غرفة الجلوس، استطاع أن يرى مقعدَيْن من أصل خمسة مقاعد هما من الطقم الذي كان له. أمّا المقاعد الثلاثة الأخرى فقد كانت جديدة، وبدت هناك فظّة وغير متّسقة مع الأثاث. وفي الوسط كانت الطاولة المرصّعة بالصدف هي نفسها، وإن كان لونها قد صار باهتًا، وفوقها استُبدِلت المزهريّة الزجاجيّة بأخرى مصنوعة من الخشب، وفيها تكوّمت أعواد من ريش الطاووس، كان يعرف أنّها سبعة أعواد. وحاول أن يعدّها وهو جالس مكانه إلّا أنّه لم يستطع، فقام واقترب من المزهريّة وأخذ يعدّها واحدة واحدة، كانت خمسة فقط.[27]

---

24. Campbell, Ian. (2001). Blindness to Blindness: Trauma, Vision and Political Consciousness in Ghassân Kanafânî's' Returning to Haifa. **Journal of Arabic Literature**, 32 (1). Pp. 53- 73.

25. Macaluso, Pasquale. (2022). Something as Essential as Life Itself: Ghassân Kanafânî's Returning to Haifa as a Parable of the Integration of Trauma. **Journal of Arabic Literature**, 53 (1- 2). Pp. 29- 56.

26. Makhoul, Manar H. (2022). Dispossession and discontinuity: The impact of the 1967 war on Palestinian thought. **Critical Inquiry**, 48 (3). 549- 569.

27. المرجع السابق. ص. 29– 30.

في هذه الفِقرة، يعبّر كنفاني عن حالة الاغتراب النفسيّ العميق التي يمرّ بها سعيد عند دخوله البيت. كلّ الأغراض التي كانت يومًا ما جزءًا من ذاكرته الشخصيّة، وحياته اليوميّة، وممتلكاته "المقدَّسة"، أصبحت الآن مزيجًا من المألوف والغريب. هذه التجربة تُجسِّد مفهوم اللّابيتيّة، حيث يتحوّل المألوف إلى ما يثير القلق والتوتّر. سعيد يدرك أنّ بعض الأشياء لا تزال كما هي، مثل صورة القدس والسَّجّادة الشاميّة، ولكن في الوقت نفسه ينتبه إلى تغييرات واضحة في بعض التفاصيل، مثل المقاعد الجديدة والطاولة الباهتة والمزهريّة الخشبيّة التي حلّت محلّ الزجاجيّة.

التركيز على أعواد ريش الطاووس، التي كان سعيد يتذكّر أنّها سبع ريشات ولكنّه لا يجد إلّا خمسًا، يعكس صراعًا داخليًّا لاستعادة الماضي والسيطرة على شيء كان يعتبره ملْكيّة شخصيّة وحميميّة. محاولته عدّ الريشات تشكّل رمزًا لمحاولة عقيمة لاستعادة الزمن المفقود والهُويّة القديمة، لكن إدراكه أنّ الأمور تغيّرت على نحوٍ لا رجعة فيه يجسّد إحساسًا عميقًا بالاغتراب. استبدال العناصر القديمة بأخرى جديدة يعزّز هذا الشعور بفقدان الهُويّة والانتماء، وهو ما يجعل العودة إلى "البيت" تجربة مليئة بالتناقضات النفسيّة والسياسيّة، حيث أصبح ما كان مألوفًا وغاليًا غريبًا وغير متّسق مع ذاكرته.

يثير كنفاني في هذا الوصف المفصّل للّابيتيّة أسئلة حول الهُويّة والذاكرة وفقدان الوطن لا كشيء جسديّ فحسْب، بل كذلك كمفهوم عاطفيّ ونفسيّ. الشخصيّات في الرواية، مثل اللاجئين الفلسطينيّين أنفسهم، تعاني من التوتّر بين الرغبةِ في العودة إلى شيء كان موطنًا في الماضي، والوعيِ أنّ هذا الوطن قد تغيّر على نحوٍ لا رجعة فيه. اللّابيتيّة الفلسطينيّة التي جَرَتْ مواجهتها في النصّ مرتبطة بالنضال من أجل العودة والاعتراف النفسيّ الجماعيّ بأنّ الوطن الذي سيعود إليه الفلسطينيّ هو ليس الوطن الذي غادره. لم يعد الوطن ما كان عليه، ولم يَعُد البيت ما كان عليه. شعور البيتيّة والحنين الذي يسعى إليه الفلسطينيّ في المخيّلة الجماعيّة لم يَعُدْ ممكنًا؛ ففي البيت اليوم تسكن ميريام اليهوديّة، وعدد ريشات الطاووس لم يَعُدْ سبعًا.

تزداد حدّة اللّابيتيّة في ***عائد إلى حيفا*** من خلال التنافر الشخصيّ والعاطفيّ الذي يعيشه الزوجان عندما يلتقيان بابنهما الضائع، خلدون/ دوف، الذي نشأ بهُويّة جديدة بين يدَيِ العائلة اليهوديّة التي استقبلته. الابن، الذي ينبغي أن يمثّل استمرارًا لنَسَبهم وارتباطهم بماضيهم، يجسّد الآن القطيعة التي خلّفتها النكبة. لم يعد دوف يعترف بتراثه الفلسطينيّ، وهو يعرّف نفسه بدلًا من ذلك بأنّه إسرائيليّ، بل ثمّة ما هو أكثر وأبعد من ذلك: هو جنديّ بِزِيّ عسكريّ. هذا التحوُّل من الألفة إلى الغرابة داخل البيت والأسرة يبلور مفهوم اللّابيتيّة في فضاءِ المنزل الماديّ، وفي فضاءِ العائلة الأُسَريّ، وعمليًّا في جميع الفضاءات النفسيّة للهُويّة. بالنسبة لسعيد وصفيّة، طفلهما -الذي كان ينبغي أن يكون رمزًا لمستقبلهما واستمراريّتهما- أصبح الآن بمثابة تذكير بنزوحهما وتشرذُم هُويّتهما الشخصيّة والوطنيّة.

لابيتيّة المقهور

في الأعمال الثلاثة المذكورة، يصبح البيت -سواء أكان البيت المادّيّ، أَم الأرض، أَم الأمّة نفسها- موقعًا للغربة، حيث عطّلت القوى الاستعماريّة الشعور بالانتماء والأمن الذي يمثّله البيت تقليديًّا. في ماتيچاري، يعكس بحث بطل الرواية عن منزله المفقود نقدًا أوسع للاستعمار الجديد، حيث يطغى الاستغلال المستمرّ على الوعد بالحرّيّة. وبالمثل، في **مكان صغير**، تستكشف كينكيد كيف يكشف واقعُ ما بعد الاستعمار في أنتيچوا عن ندوب الاستعمار العميقة، ممّا يحوّل الجزيرة إلى مكان للصدمة التاريخيّة التي ما زال يعاني منها السكّان الأصليّون. في الوقت نفسه، في ***عائد إلى حيفا***، يصوّر كنفاني بشكل مؤثّر الاغترابَ الشخصيّ والجماعيّ لدى الفلسطينيّين العائدين إلى منازلهم عودةً غير عاديّة، ليجدوها قد تغيّرت على نحوٍ لا رجعة فيه بعد النكبة. في كلّ حالة من الحالات، تنشأ اللّابيتيّة من التوتُّر بين ما يجب أن يكون مألوفًا -البيت- والتحوُّلات المقلقة التي يمرّ بها بسبب إرث الاستعمار.

لا تتناول هذه النصوص الثلاثة النزوح الجسديّ الذي سبّبه الاستعمار فحسب، بل تتعمّق أيضًا في العواقب النفسيّة والعاطفيّة لفقدان المرء وطنه. هذا الفقدان العميق الذي يتبلور في النصوص يعبّر عن قهر الشعوب، كما في **مكان صغير**، وعن كبريائها، كما في ماتيچاري، وعن فقدانها وأحلامها، مثلما في ***عائد إلى حيفا***. تتجلّى اللّابيتيّة في الروايات الثلاث في مواجهات الأبطال مع بيوت لم تَعُدْ ملكًا لهم، وتعكس مخاوف أعمق بشأن الهُويّة، والانتماء، والندوب التي شقّتها القوى التاريخيّة والسياسيّة. خيبة أمل ماتيچاري من حالة ما بعد الاستعمار تعكس التمزُّق النفسيّ الذي يشعر به الزوجان في ***عائد إلى حيفا***، حيث يصبح المنزل تذكيرًا مؤلمًا بالخسارة والتفكُّك. **مكان صغير** تُوسّعُ هذا الوصف باستكشاف تحوُّل البيت إلى وجهة سياحيّة، تجسّد الغرابة بالنسبة لسكّانه، الذين يجدون أنفسهم غرباء في وطنهم. تشير هذه النصوص معًا إلى أنّ المنزل، في سياقِ ما بعد الاستعمار، لم يَعُدْ ملجأً بل غَدَا موقعًا لصراع لم يَجْرِ حلّه، إذ يتحوّل المألوف دائمًا إلى شيء غريب ومقلق.

هذه النصوص الأدبيّة، وغيرها من أدبِ ما بعد الاستعمار، تضيف على تعريف فرويد وبابا بطُرُق عمليّة ومعبّرة، حيث تحوّل مفهوم اللّابيتيّة إلى تجربة ملموسة من خلال السرد الأدبيّ. الأدب لا يقتصر على شرح الصراعات النفسيّة فقط، بل يقدّم سياقات تاريخيّة وسياسيّة ملموسة، مثل النكبة الفلسطينيّة أو الاستعمار في أفريقيا ومنطقة الكاريبي، ليجعل من اللّابيتيّة أداة لفَهْم أعمق للصراع النفسيّ الجماعيّ والفرديّ. هذه النصوص تُظهِر كيف يمكن للمفهوم أن يكون أكثر شموليّة عند تطبيقه في أدبِ ما بعد الاستعمار، ليكشف عن تداخل المعاناة النفسيّة مع الصراعات السياسيّة والهُويّة الوطنيّة.

على ضوء ما جرى تقديمه في هذه المادّة، يمكننا تفسير تجربة اللّابيتيّة للفلسطينيّين المواطنين في إسرائيل كتجربة تتعلّق بالعيش في الوطن البيت، لكنّه غريب وغير آمن من الناحية الاجتماعيّة والسياسيّة. إنّ مفهوم اللّابيتيّة هنا يتجاوز الانفصال الفيزيائيّ أو المنفى، ليركّز على التوتُّر بين الهُويّة والانتماء في سياق معقَّد من الهيمنة والسياسات الإقصائيّة. يعيش الفلسطينيّون المواطنون في إسرائيل في حالة من التناقض الدائم؛ إذ إنّهم يملكون المواطَنة الرسميّة ولكن يواجهون تمييزًا مؤسّسيًّا ومحاولات لمحو هُويّتهم القوميّة والثقافيّة. من خلال هذا المنظور، يعيد مفهوم اللّابيتيّة

صياغة العلاقة بين الفلسطينيّين المواطنين في إسرائيل والدولةِ، حيث يصبح الوطن الحامل لملامح الألفة حيّزًا يشعّ شعورًا دائمًا بالغربة والتهديد. هذا الشعور المتواصل بالغربة في وطن مألوف يعكس الاضطراب في الهُويّة والانتماء، إذ يجد الفلسطينيّون أنفسهم مواطنين رسميًّا، لكنّهم يشعرون بأنّهم غرباء في حيّز تسيطر عليه هُويّة مختلفة. اللّابيتيّة في هذا السياق لا تتعلّق فقط بفقدان مادّيّ للوطن، بل تتعلّق كذلك بتحدّيات العيش في وطن لم يَعُدْ يمنح الأمان والشعور الكامل بالانتماء.

إحدى أكثر لحظات ***مكان صغير*** تعبيرًا عن هذا الإحساس تلك التي فيها تتساءل كينكيد: "هل سبق لك أن تساءلت بينك وبين نفسك لماذا يبدو أنّ كلّ الناس مثلي قد تعلّموا منك كيف يَسجنون ويَقتلون بعضهم البعض؟". هذا التساؤل يعكس بدقّةٍ الوضعَ في المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل، حيث العنف الداخليّ ليس مجرَّد انهيار اجتماعيّ، بل نتيجة لسياسات أوسع سمحت بترسيخه كأداة تفكيك من الداخل. وكما تصف كينكيد كيفيّة تحوُّل البيت والمجتمع إلى أماكن تَحْكمها شبكات الفساد والاستغلال، فإنّ الفلسطينيّين داخل إسرائيل يجدون أنفسهم في بيئة يتلاشى فيها الإحساس بالانتماء، حيث تتآكل الروابط الاجتماعيّة ويصبح العيش في "الوطن" تجربة غريبة ومليئة بالقلق.

مثلما يجد ماتيچاري أنّ الاستقلال لم يؤدِّ إلى عدالة حقيقيّة، بل أفضى إلى استمرار وجود منظومات القمع بأشكال أخرى، تمامًا كذلك يواجه الفلسطينيّون في إسرائيل واقعًا فيه تتعامل المؤسَّسات الرسميّة معهم كمواطنين من الدرجة الثانية، وتسمح بازدهار العنف والجريمة المنظَّمة في مجتمعاتهم من خلال الإهمال والتواطؤ. اللّابيتيّة هنا ليست مجرّد شعور نفسيّ، بل هي تجربة سياسيّة واجتماعيّة ملموسة، حيث يصبح الحيّ والبيت والمجتمع فضاءات يسودها الخوف وانعدام الأمان بدلًا من أن تكون أماكن انتماء واستقرار. مثلما أنّ ماتيچاري يواجه منظومة تُشَرْعِن سرقة بيته عبْر خطاب القوّة والقانون، كذلك يواجه الفلسطينيّون داخل إسرائيل سياسات إقصائيّة تَحُول دون امتلاكهم الفعليّ لأرضهم، سواء أكان ذاك من خلال قوانين تمييزيّة، أَمْ من خلال السماح بتفكُّك مجتمعاتهم داخليًّا عبْر تفشّي الفساد والجريمة، ممّا يجعل الوطن نفسه يبدو فضاءً غريبًا وغير مألوف.

وبالطبع أبرز هذه السياقات هي في كون كنفاني لا يكتفي بصور اللّابيتيّة الفلسطينيّة المتعدّدة التي عرَضَها في ***عائد إلى حيفا***، بل يضيف إليها كذلك لابيتيّة الفلسطينيّ المواطن في إسرائيل، من خلال شخصيّة وقصّة فارس اللبدة الذي يعود إلى بيته في يافا ليجد فيه فلسطينيًّا آخرَ يسكنه، يستقبله قائلًا: "لا حاجة لتصبّ غضبك عليّ، فأنا عربيّ أيضًا، ويافاويّ مثلك، وأعرفك". في البيت اليافيّ، يجد فارس اللبدة أنّ صورة أخيه المناضل ما زالت تتوّج كبد البيت، وأنّ من يسكنون بيته الآن يتعاملون بكامل الاحترام مع تضحيته، "ربّما كان نوعًا من الوفاء لأولئك الذين قاتلوا!" ففي هذا الفصل، يتمكّن كنفاني من نقل التركيز من لابيتيّة المهجَّر العائد إلى حيفا إلى لابيتيّة الفلسطينيّ الباقي في يافا. وعمليًّا، يوظّف كنفاني اللّابيتيّة في ***عائد إلى حيفا*** للتأمُّل في التجربة الفلسطينيّة الأوسع للوطن. يصبح المنزل نفسه (في حيفا وفي يافا) نموذجًا مصغَّرًا للصراع النفسيّ الفلسطينيّ، إذ يكون مفهوم المنزل دائمًا تحت الحصار ويُعاد تعريفه من طرف قوى الاحتلال والاستعمار، سواء أكان لاجئًا ناجيًا من المحرقة، أَمْ جنديًّا في جيش الاحتلال. إنّ صراع سعيد الداخليّ مع فقدان منزله، جسديًّا ورمزيًّا، يعكس تجربة المنفى الجماعيّة الفلسطينيّة والتَّوْق إلى العودة.

خاتمة

في نهاية الأمر، نذكّر أنّه في سياق علم النفس التحليليّ وعلم النفس التحرُّريّ يركّز المقال على كيفيّة تأثير القوى الاستعماريّة وما بعد الاستعماريّة على الهُويّة النفسيّة والجماعيّة للأفراد والمجتمعات. من خلال استعراض مفهوم اللّابيتيّة وتطبيقه في أدبِ ما بعد الاستعمار، يقدّم المقال أدوات تحليليّة لفَهْم التجارب النفسيّة المرتبطة بفقدان الوطن والهُويّة والانتماء. يساعد هذا الفَهْم على التعامل مع الندوب النفسيّة التي يعيشها الأفراد المتأثّرون بالقهر السياسيّ والنزوح القسريّ، حيث يقدَّم الأدب وسيلةً لاستكشاف الألم الجماعيّ وفَهْم الصراعات النفسيّة الناجمة عن تلك الظروف. يعزّز المقال أهمّيّة النظر إلى النصوص الأدبيّة على أنّها أداة تساعد على التحرُّر النفسيّ؛ إذ يمكن أن تُوظَّف في غرفة العلاج وخارجها لفَهْم أعمق للذّات وللتعامل مع آثار القمع والاستعمار.

توفّر هذه النصوص أداة عمليّة وفعليّة للنشاط النفسيّ التحرُّريّ، وذلك لكونها تقدّم أدوات قويّة لفَهْم الصراعات النفسيّة التي يمرّ بها الأفراد في سياقات القمع والاحتلال والاستعمار. تسهم التجربة الأدبيّة -قراءةً ومناقشةً ونقدًا- في مساعدة الأفراد على التعبير عن مشاعرهم المرتبطة بالهُويّة والاغتراب والفقدان، وهي مشاعر متجذّرة في تجارب جماعيّة تمتدّ إلى الماضي الاستعماريّ. قراءة وتحليل هذه النصوص يمكن أن يكونا مفيدَيْن في مساعدة الأفراد على فَهْم أنفسهم وتجاربهم من منظورٍ أوسع، منظورٍ يتجاوز الفرديّة ليربط تجربتهم الشخصيّة بالنضال الجماعيّ ضدّ القمع. يوفّر الأدب مساحة لتحليل وفَهْم الصدمات النفسيّة الناتجة عن الاستعمار والاحتلال، وهو ما قد يساعد في عمليّة التحرُّر النفسيّ والجسديّ.

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية